

قاسم أمين ومكانة المرأة في المجتمع المصري الحديث

وسائل الإصلاح بتربيتها - وتطور الفكرة في ذهن المصلح الاجتماعي
للاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي

مضى على وفاة المرحوم قاسم أمين ثلاث وثلاثون سنة أي جيل كامل فان علماء التاريخ يعتبرون القرن ثلاثة أجيال generation. وكان عمره عند وفاته في أبريل سنة ١٩٠٨ نحسأ وأربعين سنة وما تزال السيدة المصون حرمه على قيد الحياة في الثالثة والسبعين وقد تفضلت وشرحت نبات هذا الجيل وأبناؤه حقيقة أفكار زوجها ولباب مقاصده من دعوته إلى تحرير المرأة ، وقبل أن تناول هذه الناحية من البحث نذكر لقراء العربية تاريخ تطور الفكرة الخاصة بالمرأة في ذهن هذا المصلح الاجتماعي العظيم .

بعد أن عاد قاسم أمين من تعليمه في أوروبا إلى مصر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٩١) زار مصر رجل فرنسي اسمه دوق داركور و بعد أن عاد إلى فرنسا وضع كتابا بالفرنسية حمل فيه حملة شعواء على مصر والاسلام وانتقد الدين والأخلاق انتقاد مرا . وكان يقال في ذلك العهد إنه كان يعزز مركز فرنسا في شمال أفريقيا ويرر استثمار الجزائر وتونس فضرب بسهمه أرق البلاد العربية وهي مصر ليسهل عليه الاجهاز على من كان أقل منها من الأمم أو من يعترف لها بالزعامة الشرقية . فم ينبر للرد على دوق داركور بلسانه ولعته في كتاب مطبوع غير قاسم أمين على كثرة من كانوا يتقنون التحرير والتعبير بتلك اللغة ولكنهم آثروا جانب السلامة بعدم التعرض واختباؤا وراء مناصبهم أو دفعهم حرصهم عليها إلى الترام الصمت .

وقد أسهب المرحوم قاسم بك في الدفاع عن المرأة المسلمة المصرية والتشريع القرآني الخاص بها حتى أزم الدوق الحجبة في كثير من المواطن ، وقيل في بعض المحافل والصحف إن قاسما جار على الدوق . ويظهر أن انتقاده لكتاب داركور أثرى نفس قاسم تأثيرا شديدا أدى به إلى تأليف كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" فقد روى المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وكان من المتصلين به بحكم صلتهما بالمغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده قال : "أخبرني قاسم أنه كان يوم اطلع على ما كتبه" الدوق داركور غافلا عن حال النساء بمصر

فألم ذلك النقد والتشنيع فاندفع إلى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظه وأرضى ضيقه بذلك عاد إلى نفسه وفكر في الأمر فأرى أن كثيرا من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك إلى أن درس هذه المسألة قائلا في نفسه "إنه لا ينبغي إذا كان العيب فينا أن نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وإنما يجب علينا أن نبحث عن عيوبنا فنعرفه ونسفي في إزالته" وطلق يبحث ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الإفرنج في شأن النساء واتهم به البحث والتنقيب إلى تأليف كتاب تحرير المرأة الذي هنز مصرهز شديدة وشغل جرائدها في تقرظه ونقده زمنا طويلا وبث همة غير واحد من حملة العاهم والطرايبش جميعا إلى التصنيف في الرد عليه وبذلك طار صيت قاه أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعدت من المصلحين الاجتماعيين .

كان تحرير المرأة أول مؤلفاته باللغة العربية فلما تعرض عشرات الكتاب لنقده وزعم بعضهم أنه نتيجة امتزاج مجهوده بجهود صديقيه الشيخ محمد صبه وسعد زغلول بك (وكان كلهم قضاة في محكمة الاستئناف) عزز كتابه الأول بكتاب ثان " المرأة الجديدة " وهو يفوق الأول في قوة الحجمة ووضوح الدليل وقد أخلاه من الشواهد الدينية من القرآن الكريم والحديث الشريف لأن الذين كانوا يخالفونه في الرأي لم يتمذرو عليهم أن يأتوا بأدلة دينية تنقض أدلته وتبني نتائجها كما حدث فعلا في كتابي الأستاذين محمد فريد وجدى بك وطلعت حرب بك (يومئذ) .

وقد حدث وفاة المرحوم قاسم أمين عقيب حفلة أقيمت في نادى المدارس العليا في أوائل أبريل سنة ١٩٠٨ تكريما لوفد من الطلاب والطالبات الرومانيات جاوعا وجئن من بخارست إلى مصر لزيارة الآثار فخطب بعضهن في النادى بالفرنسية فمقب عليهن المرحوم متمنيا أن يعيش حتى يرى اليوم الذى تمخطب فيه الفتاة المصرية خطبة بلغة بلغتها وبغيرها من اللغات . ثم عاد إلى داره بفلس في بهو الدار ودخن لفيقة من الطبايق (سيجارها فاننا) وشرب قدحا من الماء ثم فاضت روحه .

لم يرق قاسم أمين إلى درجة المصلح الاجتماعى في مصر عفوا ، ولم يذع صيته ويظهر فضله مصادفة وهو في الخامسة والثلاثين بل كانت منذ شبابه دائما في البحث والتنقيب عن وسائل الإصلاح الاجتماعى في الشرق عامة ، ومصر خاصة فتتقف ثقافة أوربية بعد ثقافته العربية ، ودليلنا على ذلك أسلوبه الكتابى وخطابى في كتابه " الآفنين وى أحكامه القضائية وخطبه الزانة في مجلس إدارة الجامعة المصرية عند إنشائها . وفى كتبه الأخرى (أسباب ونتائج) و (ومذكراتى) فى الكتاب 'الأول رسم صورة دقيقة للجمع المصرى وفى الثانى أوضح كثيرا من العلل الاجتماعية وسجل اختلاجات نفسه وخو طره أثناء شبابه ورجولته . وكان أكبرهمه حث الأمة والحكومة على رفع المستوى الخلقى والعقل فلما وقف حسن زايد ناسا أطينا كبيرة الربيع على الجامعة المصرية عند إنشائها وذهب قاسم بك

مع بئحة تسلم حجة الوقف خطب فقال : إذا نظرنا إلى صائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العليا نجد أنهم يعملون على مبدأ " كسب كثيرا وتعب قليلا " ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق للذي تحتل شهوة العمل قلبه وتمدد فيه وتملؤه برمه ولا تقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبها . وقد وصف في مذكراته أجناسا وألوانا من الناس الذين يهربون من المسؤولية حتى جعلوا الفرار من التبعات بونا من العقيدة (culte d'irresponsabilité) هؤلاء الذين يبحثون ويدأبون للحصول على المغام وينفضلون من الواجبات التي قد تجر وراءها بعض المغارم .

ثم تطور فكر المصلح الاجتماعي وسار بخطى واسعة نحو غايته الأخيرة فكتب يقول " إن عدم استعداد طببة العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر في إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلة التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لأنهم إلا بالتأنيج المادية في جميع أمورنا حتى في الأشياء التي بطبيعتها يحب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقة الأقارب والأصدقاء وليس من المتصور أن تتغير أخلاقنا في هذه الجهة تغيرا محسوسا إلا إذا تم إصلاح العائلة المصرية ! أرايت أنه انتقل من بحث إلى بحث ومن مسألة إلى أخرى حتى بلغ فكرته الأصلية وجعل انحطاط المرأة وجهلها سببا في تأخر الأمة بأسرها . وآية ذلك أن المرحوم قاسم بحث في المسائل الاجتماعية بصفة عامة فكان رأيها فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية وسن التحليل والتركيب والنمو التدريجي والانتقال بالتطور لا بالطرفة وبحث في المسألة الاجتماعية لمصر بصفة خاصة فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ووجد أن المرأة هي الأساس الأول لبناء العائلة .

وبعد ثلاث وثلاثين سنة من خطبته التي ألقاها باللغة الفرنسية على مبر نادى المدارس العليا في تلك الليلة التي لانسى من ربيع ١٩٠٨ تحقق أمل قاسم وبلغت الفتاة المصرية الدرجة التي كان يمتناها فتلقى العلم في مدرجات الجامعة المصرية التي كان في مقدمة منشئها مع الشبان على مقاعد متحدة ومتجاورة ثم تخرجت بعد أن أتقنت اللغات وكتبت بها وخطبت وإن يكن قاسم أمين قد لفظ أنفاسه الأخيرة عقيب خطبته وكانت آخر ما نطق به فاستجيت دعوته وتجسدت أمنيته ولا يضيره أنه ذهب من ناديه إلى داره فصعدت روحه إلى بارئها في تلك الدار التي قال حافظ إبراهيم يصفها في حفلة تأبينه :

وأما على دار صررت بها قفرا وكانت ملتي السبيل
أرخصت فيها كل غالبية وذكرت فيها وقفة الطلل
سألتها عن قاسم فأبت رد الجواب فرحت في خبل
متعثرا يتسألي وهن مترنحا كالشارب الخبل (١)

(١) موقع هذه الدار الآن في شارع الخديو اسماعيل عن يمين الشارع إلى ميدان اسماعيل وقد حلت محلها عمارة جديدة تحمل رقم ١٧٠ وكان اسم الشارع " قصر النيل " .

فاعتقد المرحوم أن الرجل لا ينبغي بغير معونة المرأة والمرأة لاتعينه إذا كانت كما مهملا أو مخلوقة محقرة وقد قال صاحب مجلة القرن التاسع عشر الانجليزية وهو من كبار المفكرين عندما قامت فيدا جولده ستاين إحدى زعيمات النساء ” إن الذين وقفوا على أحوال البلاد المتأخرة عرفوا أن لتأخرها سببين لاثالث لها: حالة المرأة وحالة الصناعة ولا تفلح بلاد والمرأة والصناعة محقرتان فيها مهما كان غناها الطبيعي متوافرا“ . ونقول إن الله أتاح قاسم أمين لإصلاح حالة المرأة في مصر في مستهل القرن العشرين ولو كان قاسم مقلدا أو ناقلا عن غيره ما أفلح قط في دعوته ودعايته، فلم يكن ممن يجعلون عقولهم مستودعا لآراء الغير فإذا حضرتهم المناقشة أودصتهم الكتابة في موضوع اجتماعي أخذوا يسردون على السامع والقارئ من مغفوظهم من أسلافهم من المنشئين والتكلمين دون أن يكون لعقولهم نصيب من الرأي والحكم بل كان رحمه الله مفكرا أصيلا متقادا اجتماعيا ومعلما إنسانيا عالميا وقد لا يستغنى عن أفكار غيره ولكنه لا ينتحلها إلا إذا اعتقدها وآمن بها وصارت جزءا من تفكيره بما نهض في نفسه من براهين اليقين والأدلة التي لا تنقض. وإنما جاءت شهرته باصلاح حال المرأة لأنه كتب فيه كتابين ولقى في سبيله من الاضطهاد والألم ما لم يلق إلا كبار المصلحين في العالم. وقد اتخذ إصلاح المرأة بالتربية والتحرير والسفور وسيلة لاصلاح الرجل واصلاح الأمة . كان يفيض أن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة بل كان يتطلع الى أن يرى بين أبناء وطنه وهم أخلاف ”المرأة المنشودة“ طائفة تطلب العلم حبا للعلم والحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول .

روت زوجة المرحوم في هذه الأيام بعد وفاته بثلاث وثلاثين سنة أنه حرص على أن تتلقى بناته دروسهن في المنزل على أيدي أساتذة ومربيات ولم يتلقين العلم في المدارس قط وأن زوجها كان يقصد من الدعوة الى تحرير المرأة أن ينهض جيل جديد يقاوم متاعب الحياة بأخلاق وتقاليد مبنية على الكرامة والاعتداد بالنفس ولم يكن يقصد الى أن تنزع سيدات عصره حجابهن وقد حرصت على بقاء الحجاب بعد وفاته .

روت السيدة حرم قاسم أمين هذه الذكريات. التي تنطوى على تفسير لبعض مبادئه لمحرر إحدى المجلات . والواضح من أقوالها أن سيدات وفتيات هذا الجيل الحاضر قد فهمن التحرير على غير حقيقته وأنها تنعى عليهن اللعنة والمخاصرة واستباحة بعض المحرمات في الحفلات العامة وفي بيوتهن والمبالغة في الزينة والتبرج .

نعم ان السيدة المصون حرم المرحوم قاسم أمين لم تشاركه في النضال الحامي الذي لقي فيه من خصومه كثيرا من النقد القاذع والمهجوم العنيف والأذى المعنوي ولكنها كانت مطلعة على دقائق فكرته وقد عاشته عشرين عاما فلا يجوز أن يهمل رأيها أو يضرب المعاصرون والمعاصرات برأيها عرض الأفق . والحقيقة التي لا شك فيها أن قاسم أمين أراد

بمحرير المرأة، فك قيود الجهل عنها بالتعليم والتربية، وهذا مستفاد من كتبه ومن خطبه ، لأنه لو قصد أن التحرير المادى لكان هذا اعترافا منه بأنها مقيدة وأسيره وحيثية ولم يكن هذا من الحق في شيء فان المرأة المسلمة ولا سيما في مصر كانت طوال عهدها متمتعة بحرية واسعة النطاق فسيحة المدى (انظر كتاب 'بن اياس وحسن المحاضرة وتاريخ الجبترى وفي اللغة الانجليزية "المصريون المحدثون" تأليف الأستاذ ادوارد ويليام نين عن حقوقهن في مصر وزواجهن وحياة الحريم وحرمتين صفحات ١٦٣ و٢٨١ و١٥٩ و١٧٥ و١٢٠ و١٤٢ من الأصل الانجيزى طبع وارد لوك بلندن) فان مصر منذ دخلت في دائرة الاسلام حلت على الجنس اللطيف من أسباب التذليل والترفيه والاسعاد ولتتبع ما لم يكن من نصيب امرأة أخرى في كثير من أنحاء العالم .

وفي عهدنا هذا صرحت بعض زعيمات النساء الفضليات باستحقاقهن تمثيل الأمة عن سبيل الانتخاب في مجلس النواب ، لا مجلس الشيوخ ؛ لا لعله إلا استحالة وجود من تعترف منهن بأنها تجاوزت حد الأربعين ! ولا يتناقى ما ذكرته السيدة المصون أرمل المرحوم وأمينته التي قضى عشية صرح بها على منبر نادى المدارس العليا وهي أن يعيش حتى يرى فتيات مصر كفتيات رومانيا يسافرن ويتعلمن ويخطبن باللغات الأجنبية فان السياحة والافتراق في طلب العلم والخطابة والكتابة لفة التعليم لا تحدش الكرامة ولا تؤثر في النظارة ولا تجرح شخصية الفتاة المستمسكة بالهضبة ولم يكن قاسم يريد غير هذا . فلو بعث الآن من مرقد لوقمت عينه على ما تقر به وهو تهذيب الفتاة وتنقيتها وأيضا على مظاهر الاستهتار التي أصيب بها بعض الآخر . فكان يقر الأوفى ويفرح بها وينكر الأخرى وينكرها . لأن قاسم أراد في صميم فكره فتاة تصلح أما لهذيب أبناء المستقبل الذين ينهصون بالأمة ويحققون آمالها . ولم يرغب قط في بنات خليعات أو متبرجات لا يصلحن إلا زينة لأبهاء القصور أو حفلات الرفاق أو ليالي الأفراس .

ولم يكن قاسم رحمة الله عليه يريد جيلا من النساء على شاكلة السيدة بانكهرست التي كانت في سبيل دعوتها لا تتخاب حينها في مجلس نواب إنجلترا تجلد مشاهير الساسة بالسياط في الأماكن العامة فان المرأة انظريفة المهذبة لا تنقلب جلادا ولا أداة للتسكيل والعداب ، ولا كهذه التي ربح في عقلها أن المرأة التي تستطيع أن تدير مهام البيت لا يصعب عليها أن تدير مهام المسكة (انظر مقالة ايضا جوستدين في مجلة نساء استراليا ١٩٣٨) وكانت البلاد التي تعطى حق الانتخاب ثلاثا في العقد الأول من هذا القرن في أوروبا وأمريكا فصرن سبعا في مقدمتها بريطانيا العظمى (عدا عن استراليا ونيوزيلاندا) . ومن العجب العاجب أن فرنسا التي اشتهرت بحرية نساءها وظهور نابات منهن في العلم والأدب والسياسة من قديم الزمان لعصرنا هذا ، مثيلات مدام دى ستايل ومام رولان ومام فاييت (راشيلد)

وكونتس دي نووى ومدام جوييت آدم ومارسيل تينير وما كسميائين بييه وكونتس دي روشيرون ومدام سافيني ومدام تالين وعشرات غيرهن ، لم تفكر واحدة منهن في الدعوة لانتخاب مجلس النواب الفرنسي ، دعت عن مجلس الشيوخ . لم ينهضن بذلك في فرنسا ولا إيطاليا ولا أسبانيا في عهد الديموقراطية السابق لهذه الحرب والتي قبضها ولم يقبذن البلاد الانجلوسكسونية ؟ اجواب أن المرأة الفرنسية مهما بلغ ذكاؤها وفصلها وميلها للثقة العامة فهي سيدة الدار و " ست البيت " من قبل ومن بعد ولا يهون عليها أن تفرط في عرشها انخاص وعشها وعش زوجها وأولادها لقاء شهرة وقتية وفتحة عامة خارج لدار .

والمرأة الثانية شبه مترجلة لا تبالي بالحياة الخاصة وقد ترك الدار تنعى من بناها وقد تبلغ فتعيد عهد الكفالة والأومومة وميادة المرأة حيث تسود بعلمها . وقد يفسد على النساء طمعهن في السلطة السياسية شدة الغيرة الفاشية في جنسهن لا على الرجال والأزواج والسياب والخلى والخلل بل على النفوذ فيصعب على الواحدة منهن أن تسلم قيادها لأختها أو جاريتها ويستحيل أن يكون النساء كلهن ناخبات وناثبات ويصعب عليهن أن يتنازلن بعضهن لبعض الآخر عن هذا الحق . أما في فرنسا فان النساء يرين في خدمة البلاد مشقة كبيرة فيجمن عنها لما ذكرنا آتفا وتخلصا من المشقة وتفضيلا للراحة على التعب . ولذا نرى المرأة المصرية في الوقت الحاضر وإلى خمسين سنة تأتي لا تفكر في هذا المشروع ولا تعمل له ولا تناضل بسبيله ، لأنها وإن لم تشترك فعلا في سياسة الأوطان فانها تعين على حيرها بخدمة الزوج وتلثثة النسل خير تنثثة .

كان قاسم أمين يريد أن يراها خطيبة ولم يشكر أن يراها نائبة وشيخة أو وزيرة مفوضة أو قائمة بأعمال (chargée d'affaires) غير أعمال بيتها . يصحح في الأفهام أن تصير المرأة ظل زوجها السياسي أو المصلح ولكن لا يجوز أن يصبح الزوج ظل زوجته حتى ولو كان من أضعف الرجال وكانت هي من ذوات العبقرية . لأن الزواج في مثل هذه الحالة لا يستقيم ولا يدوم وليست كل نساء الشرق كشجرة الدر ولا كل نساء أوروبا كاليزابيث أو كاترين الثانية .

ولكن في العالم نابغات كمدام كورى وفلورنس نايتنجيل ومارى باسكير تسييف ومسز ما تшил ومدام كايافيه وغيرهن ممن أظهرهن الله بالعلم والفضيلة فأضفن إلى التقدم الإنساني ثروة جديدة وعرفن كيف ينفعن الناس بغير تمانح ولا مباحاة وجمعن بين إسعاد الرجال والقيام بأجل خدمة للجمع ، متناسيات في معظم الأوقات شخصياتهن فكان ذلك أدعى إلى تقديرهن .

لقد كان هذا هو المثل الأعلى لقاسم أمين ، الذى ينب إلى ذهن القارئ إذا لم يكتف بتصفح كتبه ، بل عمل على درسها وتأملها . لأنه كان يجب العمل الصامت ، لا التظاهر

الصاحب ولذا كانت حياته على هذا النمط . كان رحمه الله من العظماء الذين لم يمتد لهم الأجل حتى تظهر كل مواهبهم .

لله درك كنت من رجل لو أمهلتك غوائل الأجل
فاذا الكفاية أطلعت رجلا طاح القضاء بذلك الرجل !
يا ذولة الأخلاق رافلة من قاسم في أبهج الحلال
كيف انطويت به على عجل أكذا تكون مصارع الدول ؟

كما قال فيه حافظ بحق . فلو أنه عاش وعمر لأفاد وطنه فوائد جمة . ومهما تكن الحال فقيمة الرجل الحقيقية لا تعرف إلا بعد مرور الزمن وتمحيص الأقوال والأفعال بنار الفحص والتدقيق في البلاد اليقظة المقدرة لموازين الرجال فكيف برجل مثله في بلادنا ؟ ولكنه دل على نبوغه وحاجة وطنه إليه في فترة قصيرة من الزمن وأثمرت جهوده في جيل واحد . وإن تكن بضع نساء قد أسأن فهم مقاصده أو تعمدن اتخاذها تكأة لمسآرهن فإن الزمن كفيل بإظهار فضله وتنقية آرائه من الزيف وإبقاء خيره وتخليد ذكره .

محمد لطفي جمعه